التراث العلمي والأدبي

كتاب «الحيوان» للجاحظ أنموذجاً

ألّف أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الملقّب بالجاحظ (153 – 255)هـ مئات من الكتب في مختلف الموضوعات، منها: «البيان والتبيين» و «البخلاء» وأشهر مؤلفاته وأوسعها كتاب «الحيوان»، وقد نُشر هذا الكتاب نشرات كثيرة أفضلها النشرة التي حققها الأستاذ عبد السلام محمد هارون، وهي في سبعة أجزاء، وقد طبع الكتاب بمطبعة مصطفى البابي الحلبي سنة 1945م.

وعنوان الكتاب يوحي أنه كتاب في علم الحيوان، ولكن من يقرأ الكتاب يجد أنه يجمع بين المادة العلمية والمادة الأدبية وموضوعات أخرى، وذلك أن الجاحظ ميّال إلى الاستطراد، فإذا ذكر حيواناً ما استطرد فذكر ما يحضره من أخبار هذا الحيوان وما قيل فيه من الشعر وما ورد حوله من الأساطير.

ألّف الجاحظ هذا الكتاب حين تقدمت به السنّ، وأصيب بالفالج والنقرس فلم تمنعه هاتان العلّتان من تأليف هذا الكتاب الضخم.

وهو يذكر في مقدمة الكتاب، بعد أن ردّ على من غاب الكتب التي ألّفها، غرضه من تأليف هذا الكتاب والنهج الذي اتبعه فيه وفائدة الكتاب فيقول: «وهذا الكتاب تستوي فيه رغبة الأمم، وتتشابه فيه العرب والعجم، لأنه وإن كان عربياً أعرابيّاً، وإسلامياً جماعياً، فقد أخذ من طرف الفلسفة، وجمع بعدُ معرفة السماع، وعلم التجربة، وأشرك فيه بين علم الكتاب (القرآن) والسنة، وبين وجدان الحاسّة، وإحساس الغريزة، ويشتهيه الفتيان، كما يشتهيه الشيوخ، ويشتهيه الفاتك كما يشتهيه الناسك، ويشتهيه اللاعب واللاهي، كما يشتهيه المجد ذو الحزم، ويشتهيه الغفل كما يشتهيه الأريب، ويشتهيه الغبي كما يشتهيه الفطن»[1].

أول بحث نطالعه في الكتاب هو: «قتل لقمان بن عاد لنسائه وابنته. وواضح أن هذا البحث لا علاقة له بالحيوان. ثم عقد فصلاً لحديث سنمار وقتله.

(1) الحيوان، الجزء الأول، ص11.

ثم ردّ على من يعيب على العلماء عنايتهم بالملح والفكاهات، فقال: «فأمّا كتابنا هذا فسنذكر جملة المذاهب فيه، ونأتي بعد ذلك على التفسير»[2].

وفي الكتاب مساجلة بين اثنين من كبار المعتزلة هما أبو إسحاق النظام ومعبد الجهني، ودارت المساجلة حول المفاضلة بين الديك والكلب، وكثيراً ما ترد في الكتاب عبارة: قال صاحب الكلب (وهو النظام، وقال صاحب الديك). وكان بعض الناس ينظر إلى هذه المساجلة بين اثنين من كبار المعتزلة بعين الاستغراب والاستنكار. وقد رد الجاحظ عليهم رداً مسهباً بقوله: «فإن قلت: وأي شيء بلغ من قدر الكلب وفضيلة الديك، حتى يتفرغ لذكر محاسنهما ومساوئهما، والموازنة بهما، والتنويه بذكرها شيخان من علية المتكلمين، ومن جلة المتقدمين، فينشئ الجاحظ دفاعاً حاراً عن تناول هذا الموضوع يستغرق من نحو عشر صفحات، وفيه يحاول أن يقول: إن البحث في شأن الحيوان ضرب من التعبد، ولون من ألوان البحوث الدينية التي تنتهي بصاحبها إلى معرفة عظمة الله، وعظم ما أسمى وبرأ[3].

وقد بلغ الأمر بأحد كبار المعتزلة في عنايته بالحيوان، والحديث فيه، أن صنع قصيدته ذكر فيها الحيوان وعجائبه، وجمع فيهما كثيراً من هذه الغرائب والفوائد، ونبه بهذا على وجوه كثيرة من الحكمة العجيبة، والموعظة البليغة[4].

ذلك الرجل هو بشر بن المعتمر، وكان رأساً على فرقة من المعتزلة سميت بالبشرية[5].

وأول حديثه عن الحيوان كان بعنوان: «تقسيم النامي، فجعله قسمين: حيوان ونبات، والحيوان على أربعة أقسام: شيء يمشي، وشيء يطير، وشيء يسبح، وشيء ينساح (أي يمشي على بطنه). والنوع الذي يمشي أربعة أقسام: ناس، وبهائم، وسباع، وحشرات[6].

ثم تحدّث عن أنواع الطير، ثم عن تقسيم الحيوان إلى فصيح وأعجم، وفصّل القول في

---

(2) الحيوان ج1، ص25.

(3) المصدر نفسه، ص23.

(4) الحيوان 91/6.

(5) انظر القصيدتين في الجزء السادس من الكتاب ص283 وما بعدها.

(6) الحيوان ج1، ص27.

أنواعهما[7].

وبعدئذ عقد فصلاً لا علاقة له بالحيوان، عنوانه: «وسائل البيان»، وهي لفظ، وخط، وعقد وإشارة. وذكر ما يعجز عنه الإنسان ويقدر عليه الحيوان.

ثم بيّن منزعه في الكتاب من مزج الجدّ بالهزل، وهي طبيعة الجاحظ في جميع مؤلفاته، ثم يستمر في الردّ على من عاب كتبه، وفي هذا الفصل يذكر ما للكتاب من شأن، ومن قوله فيه: «نعم الذخر والعقدة، ونعم الجليس والعدّة، ونعم النشوة والنراهة، ونعم المشتغل والحرفة، ونعم الأنيس ساعة الوحدة، ونعم المعرفة ببلاد الغربة، ونعم القرين والدخيل، ونعم الوزير والنزيل. والكتاب وعاءً مُلئ علماً، وظرف حُشي ظرفاً، وإنا شُحن مُزاحاً وجدّاً، إن شئت كان أبين من سحبان وائل، وإن شئت كان أعيا من باقل... الخ حديثه عن الكتاب ومنزلته»[8].

وخلاصة القول في هذا الكتاب النفيس أنه إذا قرأته وأنت تأمل الحصول على معارف علمية دقيقة عن الحيوان خاب أملك، أما إذا قرأته للمتعة الأدبية فقد خفّقت أملك.

وعذر الجاحظ في حديثه عن الحيوان أنه وجد في عصر لم تنضج فيه المعرفة بالحيوان وأنواعه، ومع ذلك فنحن نرى أن الجاحظ اتّبع في دراسة الحيوان وسائل علمية، فقد اعتمد على التجربة والمعاينة، ومعرفة السماع، والنقل، وأضاف إلى ذلك عرض كل ما يسمعه وينقله على عقله، فما ارتضاه عقله قبله وما لم يرضه رفضه.

ثم يتناول موضوعاً اجتماعياً فيقول: «ثم اعلم، رحمك الله تعالى، أن حاجة بعض الناس إلى بعض صفة لازمة في طبائعهم، وخلقه قائمة في جواهرهم، وثابتة لا تزايلهم، ومحيطة بجماعتهم، ومشتملة على أدناهم وأقصاهم، وحاجتهم إلى ما غاب عنهم، مما يُعيشهم ويُحييهم، ويمسك بأرماقهم ويُصلح بالهم، ويجمع شملهم، وإلى التعاون في درك ذلك، ...... الخ[9]..

---

(7) المصدر نفسه، ص28 وما بعدها.

(8) المصدر نفسه، ص38..

(9) المصدر نفسه، ص42.

ومن الموضوعات الأدبية التي عرض لها الجاحظ تاريخ الشعر العربي، فيقول: «وأما الشعر فحديث الميلاد، صغير السن، وأول من نهج سبيله وسهّل الطريق إليه امرؤ القيس بن حجر، ومهلهل بن ربيعة، فإذا استظهرنا الشعر، وجدنا له إلى أن رجاء الله بالإسلام، خمسين ومئة عام، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمئتي عام.

وفضيلة الشعر مقصورة على العرب، وعلى من تكلم بلسان العرب، والشعر لا يستطاع أن يترجّم، ولا يجوز عليه النقل، ومتى حوّل تقطع نظمه، وبطل وزنُه وذهب حُسنه، وسقط موضع التعجب، لا كالكلام المنثور...»[10].

هذه نظرات الجاحظ في الشعر ومبدئه وصعوبة ترجمته، ونظراته قابلة للمناقشة. ومن العسير استقصاء ما ورد في هذا الجزء من موضوعات أدبية وما فيه من أخبار الشعراء، ومن موضوعات هذا الجزء الحديث عن الخصاء وآثاره في الذكاء والأخلاق، ومن الموضوعات التي تناولها تلاقح الجن والإنس وقد أبدى إنكاره لهذا الحديث[11].

ومن نظراته الاجتماعية ومن قوله أن مصلحة الكون في امتزاج الخير بالشر، يقول: «المهم أن المصلحة في أمر ابتداء الدنيا إلى انقضاء مدتها، امتزاج الخير بالشر، والضارّ بالنافع، والمكروه بالسائر، والضَّعة بالرفعة، والكثرة بالقلة. ولو كان الشر صرفاً هلك الحق، أو كان الخير مهناً سقطت المحنة، وتقطعت أسباب الفكرة، ومع عدم الفكرة يكون عدم الحكمة، ومن ذهب التخيير ذهب التمييز، ... الخ»[12].

والجاحظ عقلاني المنزع فهو يحذّر من الاعتماد على الحواس وحدها فيقول: «وللأمور حكماً من: حكم ظاهر للحواس وحكم باطن للعقول، والعقل هو الحجة...»[13].

ومن الموضوعات التي تناولها في هذا الجزء موضوع تسمية الإنسان بالعالَم الأصغر، يقول: «أو ما علمت أن الإنسان الذي خُلقت السماوات والأرض وما بينهما من أجله، كما قال الله عز وجل: ﴿سخر لكم ما في السموات وما في الأرض....﴾ إنما سمّوه العالَم

(10) المصدر نفسه، ص74.

(11) المصدر نفسه، ص188.

(12) المصدر نفسه، ص204.

(13) المصدر نفسه، ص207.

الصغير سليل العالم الكبير، ولما وجدوا فيه من جميع أشكال العالم الكبير، ووجدنا له الحواسّ الخمس، ووجدوا فيه المحسوسات الخمس، ... الخ»[14].

وفي هذا الجزء حديث عما ترك الناس من ألفاظ الجاهلية، «فمن ذلك تسميتهم للخراج إتاوة، وكقولهم للرشوة ولما يأخذه السلطان: الحُملان والمكس، وقال جابر بن حُنّيّ:

أفي كل أسواق العراق إتاوة وفي كل ما باع امرؤ مكس درهم

كما تركوا: أنعِم صباحاً، وأنعِم ظلاماً، وصاروا يقولون: كيف أصبحتم، كيف أمسيتم... كما تركوا أن يقولوا للملك أو السيد المطاع: أبيت اللعن... وكما تركوا أن يقولوا لقُوّام الملوك: السَّدَنة وقالوا: الحَجَبَة[15].

وفي هذا الجزء حديث عن الحلف عند العرب وأنواعه[16].

وفي باقي هذا الجزء حديث عن الحيوان، ولاسيما الكلب، فهو يشغل حيزاً كبيراً من كتاب الحيوان. وسوف نختار من الأجزاء الستة الباقية الموضوعات الأدبية والفكرية والاجتماعية ذات الشأن.

وقد بيّن لنا في الجزء الثالث منهجه في الكتاب فقال: «إني قد عزمت – والله الموفق– أن أرشح هذا الكتاب وأفصّل أبوابه، بنوادر من ضروب الشعر، وضروب الأحاديث، ليخرج قارئ هذا الكتاب من باب إلى باب، ومن شكل إلى شكل، فإني رأيت الأسماع تملّ الأصوات المطربة، والأغاني الحسنة والأوتار الفصيحة إذا طال ذلك عليها[17].

فمنهج الجاحظ في تآليفه يقوم على اختيار الأبواب التي يميل إليها القارئ ولا يجعله يسأم.

ومما يتصل بمنهجه في الكتاب حديثه عن الإطناب والإيجاز يقول: «وقد بقيت، أبقاك الله تعالى – أبواب توجب الإطالة وتحوج إلى الإطناب، وليس بإطالة ما لم يجاوز مقدار

(14) المصدر نفسه، ص212.
(15) المصدر نفسه، ص326.
(16) المصدر نفسه، ص362.
(17) الحيوان، 7/3.

الحاجة، ووقف عند مُنتهى البغية.

وإنما الألفاظ على أقدار المعاني، فكثيرها لكثيرها، وقليلها لقليلها، وشريفها لشريفها، وسخيفها لسخيفها، والمعاني المفردة البائنة بصورها وجهاتها تحتاج من الألفاظ إلى أقل مما تحتاج إليه المعاني، ولو جهد جميع أهل البلاغة أن يخبروا من دونهم عن هذه المعاني، بكلام وجيز يغني عن التفسير باللسان، والإشارة باليد والرأس، لما قدروا عليه الخ[18]...

ثم يورد كلاماً عن شواهد هذا الكتاب توضح منهجه فيه، فيقول: «ولم نذكر – بحمد الله تعالى – شيئاً من هذه الغرائب، وطريفة من هذه الطرائف، إلا ومعها شاهد من كتاب منزل، أو حديث مأثور، أو خبر مستفيض، أو شعر معروف، أو مثل مضروب[19]...

(18) المصدر نفسه 7/6.

(19) الجزء السادس، ص12.

أساليب التحقيق العلمي في كتاب الحيوان

اتبع الجاحظ في كتابه هذا طرقاً من أساليب مختلفة في تحقيق الروايات والأخبار، وكان اعتماده الأول على الشك في كل ما يسمعه أو يقرؤه، والشك عنده سبيل إلى اليقين ومن أقواله فيه: «اعرف مواضع الشك والحالات الموجبة له، لتعرف بها مواضع اليقين والحادث الموجبة له، وقد جاء الفيلسوف ديكارت بعد الجاحظ بمئات السنين فنادى باللجوء إلى الشك للوصول إلى اليقين. فإذا أراد أن يصل إلى اليقين كان الجاحظ يعمد إلى التجربة فربما يعج بطن العقرب ليرى ما فيه يقول: كنت بعجت بطن عقرب إذ كنت بمصر فوجدت فيه أكثر من سبعين عقارب صغار، كل واحدة نحو أرزة[20].

ومن تجاربه في الأفاعي قوله: وقد رأيت بيض الحيات وكسرتها لأتعرّف ما فيها، فإذا هي بيض مستطيل أكدر اللون أخضر، وفي بعضه نمش ولمع، فأما داخله فلم أر قبحاً قط، ولا صديداً خرج من جرح فاسد، إلا والذي في بيضها أسمج وأقذر.

وكان ينقل من كتاب أرسطو ولكنه يبدي شكه في بعض ما رواه، ومن ذلك قوله: «وقد زعم صاحب المنطق أنه قد ظهرت حيّة لها رأسان. فسألت أعرابياً عن ذلك، فزعم أن ذلك حق فقالت له: فمن أي جهة الرأسين تسعى؟ ومن أيهما تأكل وتعضّ. فقال: فأما السعي فلا تسعى، ولكنها تسعى إلى حاجتها بالتقلب، كما يتقلب الصبيان على الرمل. فأما الأكل فإنها تتعشى بفم وتتغدى بفم. وأما العض فإنها تعضّ برأسيها معاً. فإذا به أكذب البريّة.

وكان إلى ذلك يعتمد على المشاهدة العينية ويردّد قوله: لا تشفيني إلا المعاينة. فكان ربما قصد محال الجزارين ليتحقق من صحة بعض ما يروى عن الناقة، وكان إلى ذلك ينقل من كتب العلماء والأدباء، وقد أخذ من كتاب أرسطو في الحيوان أشياء كثيرة، ولكن كان لا يثق بكل ما وجده فيه، وكان يعرض كل ما ينقله على عقله، فالحواس قد تخطئ والعقل هو الحجة[21].

---

(20) الجزء الخامس، ص245.

(21) الحيوان ج1، ص207.

مصادر الجاحظ في كتاب الحيوان

انتفع الجاحظ في كتابه هذا بمصادر شتى أغنى بها كتابه. منها:

1- القرآن الكريم وكتابه يشتمل على آيات كثيرة منه، وربما فسّر بعضها.

2- الحديث النبوي الشريف.

3- الرسائل التي نشرت حول أنواع الحيوان، مثل: كتب الإبل والشاء والخيل ونحوها.

4- كتاب الحيوان لأرسطو وقد نقل منه ما وجده جديراً بالنقل وعلّق على بعض ما وجده فيه.

5- الشعر العربي وفي الكتاب أشعار للشعراء العرب قيلت في موضوعات شتى ومنها ما يتصل بالحيوان.

6- ما ولّده المعتزلة من أقوال، وأخذ خاصة عن أستاذه النظام الشيء الكثير، ومع ذلك لا نجد في الكتاب عرضاً لمذهب الاعتزال ومبادئه مع أن الجاحظ كان شيخاً من شيوخ المعتزلة وله فرقة منهم تعرف بالجاحظية.

7- التجارب التي قام بها والأمور التي عاينها وما سمعه من أخبار وأحاديث وقد عرضها على عقله ليتحقق من صحتها.

القيمة العلمية والأدبية والمعرفية لكتاب الحيوان

كتاب الحيوان موسوعة ضخمة تشتمل على معارف متنوعة وهي تنبئ عن آفاق الجاحظ العلمية والأدبية والمعرفية، وهو أفضل كتاب تراثي في الحيوان وصل إلينا.

وقد تحدث عما يزيد على ثلاثمئة نوع من الحيوان المعروف لعهده، ومع ذلك لم يستوف ذكر جميع أنواع الحيوان، وربما كان في حديثه عن بعض أنواع الحيوان بعيداً عن التعريف العلمي الدقيق لها. ولكنه مع ذلك عرّف معاصريه وعرّفنا كثيراً من صفات الحيوان وطباعه وما يأكل من الحيوان والنبات، فالفائدة منه في معرفة الحيوان محققة.

وفي الكتاب إضافة إلى ما ذكره عن الحيوان معارف طبيعية، وجغرافية، وتاريخية، وطبية، وبعض من المسائل الدينية والعقدية، والمعارف الأدبية مستفيضة فيه وكذلك المعارف اللغوية. وقد جمع من أشعار العرب ما يملأ ديواناً ضخماً.

وتتجلى في الكتاب فكاهة الجاحظ وظرفه وميله إلى الدعابة والهزل، وفيه من النوادر والطرائف ما لا نجده في أي كتاب آخر.

وقارئ الكتاب يستمتع بأسلوب الجاحظ ولغته الواسعة، ولا غنى لأي مثقف عن مطالعته.

مصادر البحث

1- كتاب الحيوان، تحقيق عبد السلام محمد هارون، طبع بمطبعة مصطفى البابي الحلبي سنة 1359هـ - 1940م.

2- الجاحظ، لشفيق جبري، محاضرات ألقيت على الطلاب في كلية الآداب بدمشق، دمشق 1351هـ - 1932م.

3- وفيات الأعيان لابن خلكان، تح. إحسان عباس، طبع دار صادر، 1970م.